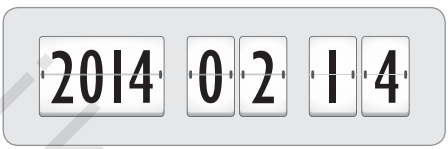

اقتحمت العيادة وبيدها خاتم ماس جميل وهي تقول بفرح: انظري إلى هدية بل لي في يوم الحب، يوم (الفالنتاين)!

لم يكن متوفرًا على ما يكفي من المال ليشتري لي خاتمًا كهذا عندما خطبني، وهو يعوِّض عن ذلك الآن؛ أن يأتي متأخرًا أفضل من ألا يأتي أبدًا، هذا ما أقوله دائمًا.

كان الخاتم رائعًا حقًّا، قلت: إنه جميل يا هيلاري؛ أرجو أن يجلب لك الكثير من السعادة.

علَّقتْ بما يشبه المزاح: واثقة أنا من أنه سيفعل، مع أنني لست من المغرمات بالحلي والمجوهرات. دعينا ننتقل إلى أمور أكثر أهمية؛ بعد خسارتي للانتخابات أمام أوباما وجدتني غارقة في بحر من الاضطراب والتشوش: لا شيء مما قاله كلٌّ من بل، أو تشلسي، أو أمي، أو أصدقاء حميمين، كان مفيدًا؛ تملكتني فكرة أنا خائبة.

ومن ذا الذي جعلني أشعر بالتحسن برأيك؟ إنه باراك أوباما؛ غريمي الأول، لا أحد سواه، الذي عرض عليَّ منصب وزارة الخارجية! كنت دائمة

الإعجاب بباراك، وعرضه السخي أشعرني بشيء من الذنب حول الأشياء السلبية التي كنت قد قلتها عنه في أثناء الحملة، أظن أنه لم يأخذ سقطاتي مأخذًا شخصيًّا، بل تفهمها وعدَّها مجرد بلاغة سياسية. ليس من شأن كثيرين ممن أعرفهم أن يتحلوا بميزة وضع الإساءات وجرح المشاعر جانبًا، وتعيين المنافسة السابقة في ثاني أهم منصب في حكومة الولايات المتحدة. ولدى تأمل ما حصل، يراودني الشك حول ما إذا كنت سأعيِّنه وزيرًا للخارجية، أو في أي منصب آخر– بالفعل– لو كنت قد فزت أنا في الانتخاب.

قلت: ربما لا يا هيلاري، غير أنني معجبة بقدرتك على قول الحقيقة حتى حين تكون بعيدة جدًّا عن تملقك.

فكرتْ بملاحظتي وقالت: شكرًا دكتورة، يسرني أن يكون هذا رأيك، بعض الناس ينعتونني بالفظاظة، أنا صريحة جدًّا حول ما أفكر به، ولا أتردد في البوح بما في ذهني، إذا أراد بعضهم أن يسيء تفسير ذلك، فأنا لا أستطيع أن أمنعهم، غير أني لست ناجحة دائمًا في خدمة نفسي حين أبالغ في الإكثار من الكلام دونما ضوابط للسان، شخصيًّا استطعت فعل ذلك، وعشت لأندم على ما فعلت إذ إن بل أو صديقًا عزيزًا كان يغضب مني.

ولكنْ كلما فتحت فمي وأنا وزيرة للخارجية، كانت أمريكا تتكلم، كل كلمة قلتها تعرضت للمعاينة، وللروز، وللتأويل. ثمة أشخاص حاولوا قراءة ما بين الأسطر، ما تحتها، ما فوقها، وحتى البحث عن معنى لكل فاصلة وفراغ، صارت الحالة مزعجة قليلًا، ووجدتني أحيانًا تواقة إلى الأيام التي كنت أستطيع فيها أن أقول ما يحلو لي.

ثم أضافت: لست امرأة غبية، أعرف أن عليَّ مداهنة الصحافة، وأن تغيير قَصَّة شعري تزعج الناس، أعرف أن عليَّ أن أتصرف كما لو كنت بلا أفكار مطلقًا، إلا أنني لن أفعل ونقطة على السطر. أنا قادرة على المساومة واجتراح

الحلول الوسط، وقد سبق لي أن فعلت؛ تخليت عن اسمي، واشتريت عدسات لاصقة، غير أنني أرفض التظاهر بأني شخص آخر لستُه.

ابتسمتُ. إنها هيلاري من قمة الرأس إلى أخمص القدم، هيلاري حتى النخاع من العظم.

تابعت الكلام قائلة: في غضون أسبوع واحد بعد الانتخاب الرئاسي، اتصل الرئيس المنتخب معي، وتحدث عن إمكانية اضطلاعي بتولي منصب وزيرة خارجية الولايات المتحدة، أتذكر حوارنا جيدًا؛ لأنني ذُهلت حين كرر: «أريدك وزيرة خارجيتي». وقلت: «ماذا؟ لا، إياك! رجاء! هناك في الولايات المتحدة أناس كثيرون يستطيعون أن يقوموا بالمهمة على نحو أفضل مني أنا!». أجابني: «لاأوافق على رأيك هذا».

إبان سباقنا الرئاسي، كان أوباما قد انتقد مؤهلاتي على صعيد السياسة الخارجية، وفكرة أن يبادر إلى تعييني وزيرة للخارجية كانت غير متوقعة إلى درجة أنني قلت لأحد مساعدي: «لن يحصل ذلك في مليون سنة». غير أن الاختلافات السياسية بيننا، رغم معاركنا في التمهيديات، لم تكن مفرطة الضخامة وقد طوَّرنا قدرًا من الاحترام المتبادل الذي أتاح لي فرصة الدعاية له من دون أي تحفظ في الانتخاب العام.

الصدقَ أقول إنني، وإن كُرمت بالعرض، لم أرغب في قبوله؛ أحببت أن أكون سيناتورًا ممثلة لنيويورك، لم أكن قد أنجزت مهمتي، ولم أرغب في ترك المنصب، غير أن أي فرصة تقدم ذات شأن على صعيد مجلس الشيوخ لم تبدُ واردة، وفيما كانت قيادة المجلس عاكفة على مناقشة مناصب قيادية محتملة أو ترقيات أخرى معي، فإن شيئًا محددًا لم يكن قد عُرض؛ آفاق صيرورتي زعيمة الأكثرية في مجلس الشيوخ بدت شبه مسدودة، لم يعجبني ذلك، فلسفتي في الحياة هي أنها منشارية: إذا لم تكوني صاعدة فأنتِ نازلة.

كنت أيضًا قلقة بشأن دور بل إذا ما وافقت على تولي المنصب، كنت صادقة مع أوباما حول هواجسي، كذلك كنت مشغولة البال باحتمال تمخض أنشطة بل ما بعد الرئاسية عن انتهاك قواعد صراع المصالح بين أعضاء الإدارة. كان -سلفًا- ثمة قدر كبير من التخمينات في الصحافة عن التأثير الذي يمكن لتولي المنصب أن يمارسه على سيرتي السياسية كما على أي تطلعات رئاسية مستقبلية محتملة، وأنا لم أكن بعد قررت إذا ما كنت سأتولى المنصب. ما الذي يجعلهم مهتمين إلى هذه الدرجة بالموضوع؟ فكرت: لماذا لا يكتفي هؤلاء بالاهتمام بشؤونهم الخاصة؟

تصورت استفهامها وقلت: إنه سؤال جيد.

فيما كنا؛ أوباما وأنا، نتحاور، بدأت أفكر: لو كنت قد فزت واتصلت به، لكنت رغبت أن يوافق، تعرفين أنني فتاة من الطراز القديم، تلك هي أنا تمامًا، إذا طلب إليك رئيس جمهوريتك أن تتولي منصبًا، فإن من الطبيعي أن تقولي: أمرك.

صديقتي كابريشيا مارشال، وقد كانت آنذاك رئيسة قسم البروتوكول في الولايات المتحدة، وكانت قد عرفتني منذ أيامي في البيت الأبيض، أكَّدت صواب منطقي قائلة إنني كنت قد خدمت حين طُلب إليَّ أن أفعل فيما مضى.

أطفأت نار كبريائي وقبلت العرض، بعد ثمانية أعوام من إدارة بوش، كانت أمريكا على مفترق طرق؛ بلدان كثيرة باتت تتجنبها، خططتُ لجعل الولايات المتحدة شريكة مرغوبة من جديد، دائبة على استكشاف قطاعات قوة جديدة وتوسيع إطار دبلوماسية القرن الواحد والعشرين.

شرطًا لقبولي بالتعيين المعروض، وافق بل على عدد من القيود على أنشطة جمع التبرعات العزيزة على قلبه، على مركز كلنتون الرئاسي، وعلى مبادرة كلنتون الكوكبية، هو من حيث الجوهر وافق على امتناع ذينك الكيانين عن

التماس التبرعات من أي حكومات مرشحة للتعامل معي بوصفي وزيرة للخارجية، وافق على الأمر كرمى لعيني، كما لعين البلد.

قالت وقد تألقت عيناها: أعشق ذلك الرجل! أعول عليه دائمًا واثقة من دعمه لي، كنت أيضًا لاأزال أخشى أن يكون عرض باراك مجرد مجاملة، وألا يكون في الواقع متوقعًا قبولي للعرض، يبدو أنني كنت مخطئة في هذا.

وهكذا وافقت والذعر يملأ قلبي ويقصف ركبي؛ بدا وكأنه توقع مني تلقف المنصب مباشرة، من المؤكد أنه هادئ ورابط الجأش (بارد مثل خيارة)! إذا ما تعرضت الولايات المتحدة- لا سمح الله- لأي هجوم نووي، فسأكون راغبة في كونه ممسكًا بدفة القيادة، حسنًا أنا سعيدة بقبول المنصب، حتى إذا كادت أن تقتلني، فإنها ربما كانت التجربة الأعظم في حياتي، حتى إنها أفضل من شغل منصب عضوة مجلس شيوخ الولايات المتحدة، وإذا كنتِ قادرة على تحمل سماع قصة شغلي لمنصب وزارة الخارجية من دون أن تُصابي بملل قاتل- دكتورة- فسيسعدني أن أحدثك عن ذلك، سأحاول أن أوجز قدر الإمكان، في هذه المحطة لا تهم القصة سوى المؤرخين... والجمهوريين بلا أدنى شك.

على الرغم من أن السياسة لم يسبق لها قط أن كانت ساحة اهتمامي الكبرى، فقد وجدتني أقول لها: العكس هو الصحيح يا هيلاري، يطيب لي كثيرًا، وكثيرًا جدًّا أن أسمع عن ولايتك، عن مدة توليك لمنصب وزارة الخارجية.

تبقى هيلاري بالغة الدهاء؛ رمقتني بنظرات مثقلة بالشك غير أنها تابعت كلامها، شعرت بالأسف من أجلها وندمت على ضعف اهتمامي بالسياسة من قبل، وإلا لكنت قد ساعدتها على نحو أفضل، قررت أن أقرأ الصحف بقدر أكبر من العمق والإحاطة في المستقبل، وعلى الأمر ألا يكون بالغ الصعوبة لأنني كنت سأقرأ عن مرضاي، وزبائني.

ذلك هو أحد الأشياء التي أحبها كثيرًا حول عملي؛ كل مريض، زبون، يأتيني بنظرة مختلفة إلى العالم، مثل انكسارات الضوء المتباينة للماسة عند تقليبها.

بصرف النظر عن معرفتي واهتمامي السياسيين المحدودين، كانت هيلاري بحاجة إلى إنجاز اطلاعي على قصة حياتها.

obeikandl.com